توظيف الرمز في النص السردي

يوسف الكميتي، ليبيا

إن توظيف الرمز في النص الأدبي لابد وأن يكون عن دراية كاملة بمدلولات هذا الرمز حتى لا يخرج المتلقي من حيز التفسير إلى حيز الإلغاز.

حتى وإن اتفقنا على أن النصوص الرمزية تقدم فكرتها بعمق أقوى من تلك المباشرة، إلا أنه لزاما على المبدع الإحاطة بمدلولات ما يوظف من رموز في نصوصه.

فهناك أشياء كثيرة ترمز لأشياء كثيرة أخرى ولابد من أن يملك الكاتب مخزونا معرفيا عميقا بذلك.

فلا يصح - مثلا - أن تكتب نصا رمزيا وترجو له العالمية وأنت قد وظفت فيه رمزا دلاليا لا يوجد إلا في موروثك المحلي، فالقارئ أو المتلقي مهما جاهد وحاول فك ترميز هذا النص فلن يفلح قيد أنملة لأنه ببساطة شديدة غير ملم بثقافة وموروث بيئة الكاتب، وسيبقى هذا النص يمثل له

لغزا عصيا عن الحل وبذلك يفشل الكاتب في إيصال مبتغاه بأسرع مما يتصور.

في المقابل فإن اختيار الكاتب لرموز معروفة ومتداولة وتوظيفها بشكل منطقي وصحيح في نصه تعطي النص الجمال والقوة والعمق التي يبتغيها الكاتب.

فكل نص لابد وأن يحمل فكرة وهذه الفكرة ستبقى مقيدة ومحبوسة إلا إذا أحسن الكاتب صياغتها وأعطاها من روحه، فتوظيف الرمز- هكذا- جزافا يصبح حشوا زائدا لا معنى له ولا فائدة منه.

والعمق الدلالي للرمز يأتي من مكانه في النص وطريقة توظيفه.

فيرمز - مثلا - للسلام بالحمامة وغصن الزيتون، ولكن تبقى طريقة إدخال هذا الرمز في نص أدبي هي الأصعب فلابد من صياغته صياغة قوية تدس فيها الرمز دسا بحيث يبقى مواربا وعندما يظهر تكون قوته في لحظة ظهوره.

وتبقى إشكالية أخرى في توظيف الرموز ألا وهي ازدواجية المعنى في بعض الأحيان، فقد يرمز الشيء الواحد لعدة معانٍ، فلابد أن يكون الكاتب متنبها لحساسية هذا التوظيف أثناء كتابته للنص، فأحيانا يقصد الكاتب شيئا ويفهم المتلقي شيئا آخر ويضيع النص بينهما.

فمثلا - الغراب - يرمز لعدة معاني تكون أحيانا متناقضة أو بعيدة عن بعضها فهو يرمز (للشؤم – الفراق – العدل – الحكمة والتعليم) فتفضلوا وشاهدوا هذا التباين بين كل هذه المعاني التي يجمعها رمز واحد.

وهل يحتمل نص أدبي أتى على ذكر- الغراب- كرمز كل هذه المدلولات؟ وببساطة شديدة فالجواب- لا - ولكن قد نتعرف على المدلول من السياق السردي للنص.

ودعونا نضرب أمثلة بسيطة عن ذلك:

نص

"يضطجع اليتيم تحت دالية العنب، تتدلى عناقيدها الشهية، مصمص شفتيه مستطعما حليب أمه"

هنا نلاحظ التوظيف السيئ للرمز داخل هذا النص، فالرابط بين عناقيد العنب وحاجة اليتيم للحليب مفقودة تماما، وهذا ما أحال النص للعبثية، فيمكننا بسهولة تامة أن نستبدل شجرة العنب بأي شجرة أخرى خوخ - مثلا - أو تفاح أو مشمش ... ألخ، والكاتب هنا وبكل بساطة قد حول المتلقي إلى عراف أو كاهن حقيقي.

ولنضرب مثالا آخر:

نص

"فوق غصن زيتون مكسور

حمامة عرجاء تقف"

هذا نص رمزي بامتياز خبري في ظاهره عميق الرمزية في مدلول الجمل فغصن الزيتون المكسور يرمز للسلام المتعثر أو المفقود، وقوّى الكاتب هذا المدلول بعبارة "حمامة عرجاء" وأعطي الأمل بعبارة "تقف".